

ابن خلدون : هذا العالم الفذ !

لم نكن نلتعرف بالتحديد على ما حدث في افريقيا منذ الفتح الاسلامي الى القرن الرابع عشر ميلادى ، لولا التراث الرائع الذى خلفه لنا ابن خلدون . وكان علينا اذن ، أن نقصر على افتراضات وتأويلات مشكوك في صحتها ، وكل المؤرخين الذين كتبوا عن هذا العصر الوسيط بخصوص المغرب العربي ، اقتبسوا أهم موادهم من أعمال ابن خلدون .

ولكن من الضرورى الإشارة هنا الى أن البعض منهم ، في أوروبا على الخصوص ، قد عملوا جاهدين على تشويه الحقيقة ، وتعريض آراء ابن خلدون لتغييرات شتى لدرجة خلق شخصية أخرى ترادف الاولى ، والغريب في ازدواج الشخصية هذا ، هو أن الثانية تمهد أو تبرر آراء وأفكار المغتصبين والمستعمرين .

يبقى لنا اذن ، أن نعمل على دراسة الشخصية الاولى ، الشخصية المغربية اللامعة: ابن خلدون الذى وضع أسس التاريخ العلمي ، واكتشف علم الاجتماع أو "العرمان" كما يسميه ، والذى يعني بدراسة أنظمة وتطور المجتمعات البشرية ، ودراسة ابن خلدون ليست مفيدة لعالم الاجتماع والمؤرخ والفيلسوف فحسب ، بل انها تفيد كذلك وبالضرورة ، المناضل العربي المتمشيت بالتراث الشعبي وقيمه التقدمية ، والطامح الى تطويرها وتعميقها واغنائها وفقا لمتطلبات العصر .

ان هذه الدراسة تدخل في اطار اعادة اكتشاف تراثنا العربي الشعبي ، الفكرى والثقافي ، وصهره ضمن توجهاتنا الاشتراكية العلمية والانسانية . وهذا مما

لا شك فيه، عمل طويل النفس، ومهمته مطروحة على عاتق كل المثقفين المخلصين لشعبهم، وهناك غير ما بادرة في الساحة المغربية نفسها، تندر وتبشر بهذا الاتجاه العام، ونحن لا نطمح من خلال هذا العرض البسيط الى التعريف ببعض جوانب أعمال عالما الفذ: ابن خلدون، وذلك بشكل مبسط وفي متناول الجميع.

انتاج ثـرى

عرف ابن خلدون خاصة كمؤلف لـ "المقدمة" الضخمة التي أعدها لكتابه: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب والبربر"، الذي يتضمن ست مجلدات، أشهرها ذلك الذي يتناول تاريخ البربر. إلا أن ابن خلدون قد ألف كتباً أخرى في مواضيع مختلفة، نذكر من بينها: كتاب في الحساب، وشرح نهج البردة، وكتاب شفاء السائل، وملخص لكتاب الفيلسوف الكبير ابن رشد.

وتعتبر "المقدمة"، بدون منازع، التأليف الأساسي لابن خلدون، نظراً لما اشتملت عليه من مواضيع ودراسات واكتشافات ومفاهيم جديدة. وتشتمل المقدمة، إضافة للمدخل، على ستة أبواب، يتناول الأول طبيعة العمران في الخليقة، والثاني العمران البدوي والأمم المتوحشة والقبائل، ويتناول الباب الثالث الدول والملك والخلافة والمراتب السلطانية، ويبحث الباب الرابع في البلدان والأمصار وسائر العمران، أما الباب الخامس فيتعلق بالمعاني ووجوه من كسب وصنائع، ويختص الباب السادس والآخر في العلوم وأصنافها، والتعلم وطرقه. وسنحاول فيما يلي ذكر أهم المفاهيم والاكتشافات التي تضمنتها المقدمة، وذلك بشكل مركز ومبسط.

نقد التاريخ التقليدي

قبل أن يقدم لنا ابن خلدون منهجه ويطلعنا على عمله الجديد، تعرض أولاً بالنقد لأخطاء المؤرخين الذين سبقوه، ولم يكن هذا النقد سلبياً عقيماً أو انتقاداً من أجل المتعة، ولكن من أجل تصحيح الأخطاء من جهة، وإعطاء البديل في شكل منهج تاريخي متكامل، من جهة أخرى.

ويرجع ابن خلدون أسباب هذه الأخطاء إلى "روح التعصب، والثقة العمياء في الرواية، وجهل المعنى الحقيقي للأحداث، والادعاء بمعرفة الحقيقة، والتزويق المقصود، والتحريف، والجهل...". ومجمل هذه الأخطاء هو الذي قاد المؤرخين في العصور التي سبقت عصر عالمنا، إلى إعطاء أهمية للأشياء العادية أو المعزولة، على حساب ما هو عام، أي إعطاء الأسبقية لما هو خاص على حساب التصور الشمولي للحدث ضمن التطور العام. وهذا ما جعل جل أعمال المؤرخين تتسم بطابع البدائية،

اذ أن أفقها ينحصر عند الوصف والرواية البحثية.

العام والخاص

لقد كتب ابن خلدون "المقدمة"، ليفهم حالة الإنسان الاجتماعية"، كما يؤكد ذلك بنفسه، وليس ليسرد الأحداث من أجل سردها. لكنه في نفس الوقت، في حاجة إلى فحص هذه الأحداث من أجل استنتاج القوانين العامة، لذلك نراه يربطها ويفرزها، ويلغي في نفس الوقت، الحشو والصيغة المحلية الخاصة.

وهكذا، انطلق ابن خلدون من الكل، الذي هو "العمران" من أجل "دراسة الاجتماع الإنساني، والطبيعة والتوحش والتآنس، والعصبية، وطرق غلب مجموعة بشرية على أخرى" — كما يقول — وهذا يؤدي إلى دراسة "أجزاء" هذا العمران، أي التطرق لظواهر "البداءة والحضارة، والعصبية، والملك، والمعاش، والعلوم، والفنون"، أي كل ما له صلة بالعمران. ودراسة هذه الأجزاء نفسها بدقة، هي التي تسمح باستنتاج القوانين العامة وتوضيح التصور حول العمران ككل.

البدو والحضر

إن ابن خلدون يبحث العمران انطلاقاً من المجموعات البشرية — لا الفرد — وهو يقصد بالعمران، مجموعة الأشياء المادية والروحية التي تكون المجتمع، ويقسم هذه المجموعة إلى قسمين: العمران البدوي والعمران الحضري.

وفي إطار هذا التقسيم العام، يتمعن في البحث الدقيق والمفصل لطرق تعامل البشر التي يربطها رباط وثيق بالظروف المعاشية للأفراد، مؤكداً بأن الفوارق التي نلاحظها في عادات ومؤسسات المجتمعات البشرية ترتبط أصلاً بالطريقة التي يتبعها الإنسان في سد حاجياته المعاشية... ومن ثم، فإن ظروف الكفاف الصعبة في البداوة هي التي طبعت شخصية البدو والرحل والفلاحين — وهي المجموعات الثلاث التي تعمر البادية — بعدة خصائص نفسية واجتماعية، منها الشجاعة والشهامة والكفاف، وخاصة عاطفة التضامن التي توجد فيما بين الأفراد داخل هذه المجموعات، لدرجة أن البدوي لا يمكنه أن يعيش خارج مجموعته، بل أنه مرتبط بها عضوياً وخاضع لمصلحتها الجماعية، كما يتضح من خلال ظاهرة "العصبية" — التي سنتعرض لها فيما بعد — وهذا خلافاً لأهل الحضر (أهل المدن) المتمتعين بالحياة السهلة والمنغمسين بعضهم في النعيم والترف، والذين لا علاقة لهم أجمالاً بالصفات النفسية والاجتماعية التي تطبع شخصية الإنسان البدوي.

والجدير بالذكر أن ابن خلدون لا يقيم التضاد بين العمران البدوي والعمران

الحضري - أو بين العرب والبربر، كما يدعي البعض - بل انه يصف لنا نقط خصائص ومميزات كل واحد منهما، وفي هذا الإطار تبرز لنا بجملة علاقة الاستغلال الاقتصادي والسياسي القائمة بين غالبية أهل البداوة من جهة، وأهل المدن من جهة ثانية، علما بأن المدن كانت تجسد مراكز السلطة القطاعية ونفوذها الاقتصادي والسياسي وكذا الثقافي ...

العصبية والحضارة

ان العصبية بمعناها العام، تعني عاطفة التضامن التي توحد مجموعة بدوية وتحركها في نفس الوقت. وهذا المفهوم العام للعصبية، يرتبط بعدة عوامل نفسية واجتماعية، منها النسب والحسب والشرف، وكذلك الحلف والولاء والرئاسة ... وبالتالي، فان مفهوم العصبية يعني واقعا مركبا لحالات اجتماعية معينة - حالات التضامن القبلي - وهذه الاخيرة ليست بالجامدة أو الساكنة، بل انها في تغير مستمر. وبناء على ذلك، فان ابن خلدون يصف العصبية من خلال طورين متميزين: يتعلق الطور الاول بنشوء العصبية في قالبها البدوي الصرف، كعلاقة تربط فيما بين مجموعة بدوية من نفس النسب. وغالبا ما يكون الدافع الاول للعصبية في مرحلتها الاولى، هو دافع الحفاظ على الذات، والانكماش على النفس من أجل تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية الداخلية للمجموعة أو القبيلة، وذلك بشكل منفصل عن العالم الخارجي. وتكون العصبية هي الشعور المحرك لافراد المجموعة للدفاع عن هذه الاخيرة والحيلولة دون أي تدخل أجنبي في شؤونها. وهو 'الافراد تربط فيما بينهم علاقة النسب بشكل وثيق - أو علاقة "الدم" - بحيث أن الزواج يتم دائما داخل نفس المجموعة، وفي غالب الاحيان يكون الزوج ابن عم الزوجة.

وتنتقل العصبية من هذا الطور الاول، عندما تبحث المجموعة (أو القبيلة) على علاقة حلف مع مجموعة أو مجموعات أخرى، وذلك ليس من أجل الانزواء أو الحفاظ على النفس، لكن بهدف توسيع دائرة النفوذ وبلوغ أهداف هزم العالم الخارجي، من أجل التحكم فيه، وتصبح غاية العصبية في نهاية المطاف هي الملك والدولة. ومن أجل ذلك فان العصبية في هذا الطور تعتمد أساسا على الدعوة من أجل ابرام التحالف فيما بين القبائل المجاورة أولا، ثم توسيع دائرة هذا التحالف، ورض صفوفه في إطار مواجهة الدولة القائمة بالدعوة والكلمة، للطعن في شرعيتها وابرار فسادها، لكن أيضا بالقوة والسلاح بهدف الاطاحة بها وبناء الدولة الجديدة. وتركز الدعوة بشكل عام على ابرار الفضائل المستمدة من العيش البدوي - من استقامة وكفاف وايمان، الخ ... - والتشديد بصفات الحاكمين المنعمين في المدن والتأكيد على فساد اخلاقهم وانحرافهم عن الدين الاسلامي.

وهكذا، ومن خلال الفحص الدقيق لظروف عيش الانسان المغربي في البادية والمدينة، والشرح المستفيض للعلاقات الاجتماعية التي تربط فيما بين الافراد المنتمين لنفس المجموعة البشرية، ولظاهرة العصبية التي تحركهم وتحكم العلاقة فيما بينهم أو تجاه المجموعات الاخرى .. يعمل ابن خلدون على فك كل دواليب المجتمع ثم اعادة تركيبها، لشرح لنا كيف توافدت السلالات المغربية على الحكم، وكيف انقرض البعض وحل محله البعض الاخر، في إطار حلقة دامت عدة قرون، تظهر بمظهر "الحلقة المفرغة"، لكنها في الحقيقة نتاج تطور مستمر، حركته قوات وعوامل اقتصادية (معاشية) واجتماعية، ومن خلال ذلك نتعرف على مفهوم "ال عمران الحضاري" الشامل عند ابن خلدون. ويشتمل تطور العمران الحضاري هذا على ثلاثة مراحل أساسية: الاولى تتعلق بنشوءه، والثانية بنضجه، أما الثالثة فهي مرحلة الانحطاط ثم السقوط.

ففي المرحلة الاولى، تعمل المجموعة البدوية المنتصرة - بفضل دعوتها وجهادها وتحالفها مع المجموعات الاخرى - على انشاء المؤسسات الضرورية لتسيير شؤون الدولة، وهذه المؤسسات لا يمكن أن تكون الا في المدينة كمركز، لذلك تكون أول عملية تهتم بها هي انشاء مدينة، أو تحويل احدى المدن الكبرى التي سيطرت عليها الى عاصمة لها. الا أن أعضاء المجموعة، رغم اقامتهم بالمدينة، يستمرون طوال المرحلة الاولى - مرحلة انشاء الدولة الجديدة التي تستغرق ثلاثين سنة تقريبا - في حياة البداوة المتقشفة وفقا لعقيدتهم وعاداتهم ودهنيتهم التي لم تتغير بعد، وهم لا يمتثلون حياة الترف وحسب، بل ينبذون كل ما يذكر بالنظام السياسي السابق والعمران الحضاري الموجود. وغالبا ما يؤدى ذلك الى تحطيم جز' من مكتسبات العمران الحضاري للعهد البائد ... وخلال هذه المرحلة تستمر علاقات العصبية قائمة وطيدة.

أما المرحلة الثانية فتبدأ عند التغلب على كل العقبات التي كانت تواجه انشاء الدولة وفرض سلطتها، وتكون الهياكل العمرانية قد استقرت، واكتسبت قوتها وصلابتها، عندها يتم الشروع في بناء العمران الحضاري الجديد. وتصادف بداية هذه المرحلة بصفة عامة، حكم ولي عهد مؤسس الدولة الجديدة، الذي يكون متأثرا بحياة الحضر والذي يعمل على ابعاد أقاربه للانفراد بالسلطة. وبقدرا ما يتطور العمران الحضاري، بقدر ما تضعف العصبية وتضمحل، وينغمس الحكام في حياة الترف والبدخ، وتعرف مدنها على الخصوص، نموا اقتصاديا وثقافيا شاملا، في حين أن جماهير واسعة من البدو تظل في نفس حالة الكفاف والتشقق ...

وفي المرحلة الثالثة والاخيرة، يبلغ العمران الحضاري قمته وتنمو مصالح الاقطاعيين المحليين بشكل مفرط، الى درجة تهديد السلطة المركزية الا ان هذه الاخيرة لا تبقى مكتوفة الايدي، ويأبى السلطان الذي يجسدها الا أن يستمر في حكمه المطلق. ونظرا لتفتت قبيلته الاصلية وانقراض عصبيتها بحكم اندماجها في العمران

الحضارى، فانه يسعى الى الاحتماء بقبائل "أجنبية"، ويلتجئ الى تجنيد المرتزقة لغزو القبائل المتمردة عليه، أو هزم المنافسين الاقطاعيين لسلطته. ومع تضاعف هذه التناقضات وكثرتها بتضاعف الاضطهاد والظلم ومختلف أنواع الحيف، التي تعاني منها جماهير الفلاحين وكذلك أهل المدن الذين يشاهدون اتلاف ثرواتهم وفسادها. وبشكل عام يعجز المنتجون على مواصلة عملهم بسبب تضاعف الجبايات التي تفرض عليهم، وجو الفوضى العامة التي تسود البلاد في مثل هذه الحالات. وهكذا تشهد الدولة بداية تفسخها الذى يؤدى الى انحطاطها وسقوطها وذلك بشكل موازى مع توطيد عصبية جديدة، وغزوها لمراكز السلطة حتى سيطرتها عليها...

وهكذا، فان العمران الحضارى، كما يشرح لنا ابن خلدون، لم يعرف تطوراً هادئاً متواصلاً، بل تعرض لتغييرات النمو والانحطاط، وتفاعلت داخله مختلف العوامل الاقتصادية (المعاشية) والاجتماعية والثقافية، وهو بالتالي، نتاج التطور التاريخي للمجتمع ككل.

خاتمة:

استهدف هذا العرض البسيط التعريف ببعض الجوانب من المفاهيم الاساسية التي تعرض لها ابن خلدون ضمن انتاجه الضخم والثرى، والغرض من ذلك هو بالاساس اثارة انتباه المناضلين الى ضرورة دراسة تراثنا الشعبي والتمعن في قيمه التقدمية دون اجحاف ولا مبالغة أو اقحام... وتبقى مهمة اعادة استقراء هذا التراث بشكل شامل كامل، فكرياً وثقافياً، مطروحة على عاتق كل المثقفين الوطنيين والتقدميين المخلصين.

